

المسك والعنبر

في

شرح دعاء السفر

وبين يديه فوائد مواظب وآداب
للمسافر

تأليف/

أبي عبدالرحمن موفق بن أحمد بن علي
الفاضلي العودي

تقديم الشيخ الفاضل/

طارق بن محمد الخياط البعداني

والشيخ الفاضل/

أبي بكر بن عبده الحمادي

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة الشيخ طارق البعداني - حفظه الله -

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبيه الكريم، وآله وصحبه أجمعين.
وبعد:

فإن الناس منذ خلقوا لم يزلوا مسافرين، وليس لهم حظ عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آفات السفر غير واقفة ولا المكلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصول، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير^(١) من الفوائد لابن القيم - (١ / ١٩٠).

ومما جُمِعَ هذه الرسالة الطيبة التي تناولت شرح دعاء السفر، والمسماه "بالمسك والعنبر في شرح دعاء السفر" لأخينا الفاضل الشيخ^(١) موفق بن أحمد الفاضلي - حفظه الله - ونفع به الإسلام والمسلمين، وألفيته شرحاً طيباً، وجزاه الله خيراً وصرف عنا وعن الفتن ما ظهر منها وما بطن والحمد لله رب العالمين.

كتبه/أبو عبدالله طارق بن محمد بن عبده بن مسعود الخياط

اليمن - مدينة إب - دار الشرف - مسجد التوحيد

الاثنين ١٧ محرم لعام ١٤٤١ هـ

(١) هذا المدح من حسن ظن الشيخ طارق بنا وتشجيعه لنا، وإلا فنحن طلاب علم نعرف قدر أنفسنا، ونسأل الله أن يمن علينا بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا خيراً مما يظن بنا إخواننا.

مقدمة الشيخ أبي بكر بن عبده الحمادي
- حفظه الله -

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العزيز الغفار خالق الليل والنهار، ومجري الأنهار، خلق الإنس والجن وأسكنهم هذه الدار، وقضى عليهم بطول الأسفار، حتى يحطوا رحالهم في جنات الخلد نعم تلك الدار من دار، وجعل محل محط الكفار في دار البوار: { جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ } [إبراهيم: ٢٩].

أما بعد/ فقد قرأت جملة من رسالة أخينا الفاضل/ أبي عبدالرحمن موفق بن أحمد بن علي الفاضلي، - جعله الله من أهل الفضائل، ووفقه للتخلي بخير الشرائع، التي سماها: "المسك والغنبر في شرح دعاء السفر" فوجدتها رسالة جيدة مفيدة شرح فيها حديث السفر بشرح حسن مع ذكر جملة من النصائح النافعة.

فأسأل الله أن يكتب له فيها الأجر، وينفع بها من شاء من خلقه، ويوفقه للعلم النافع والعمل الصالح.

كتبه أبو بكر بن عبده بن عبدالله بن حامد الحمادي في يوم العشرين من شهر محرم لعام إحدى وأربعين وأربعمائة وألف من هجرة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

تم كتابة ذلك في مفرق ذي السفال من مدينة القاعدة من بلاد اليمن.

المقدمة

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، حمدًا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، والصلاة والسلام عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وإخوانه.

أما بعد:

فهذه رسالة بعنوان: "المسك والعنبر في شرح دعاء السفر وبين يديه فوائد ومواعظ وآداب" جمعت فيه ما يتعلق بآداب السفر وذكرت جملة من الفوائد والمواعظ التي يحتاجها المسافر، ويتزود بها في سفره، وشرحت ألفاظ حديث دعاء السفر وعباراته وتطرقت لبعض رواياته الغير مشهورة عند كثير من الناس، مستعينا بالله ثم بأقوال أهل العلم وأحداث الواقع، وذكرت جملة من آداب الدعاء وفضائله، وشيئًا مما يتعلق بالإجابة وأسبابها وأوقاتها وموانعها على سبيل الإجمال، فنسأل الله أن ينفع بهذا العمل المسافرين، وأجعله ذخيرًا للإسلام والمسلمين، وأن يجعله مفتاح خير لهم وزادًا لهم في أسفارهم، والحمد لله رب العالمين.

١٣/محرم/١٤٤١هـ

سبب تأليف هذه الرسالة:

كان سبب تأليف هذه الرسالة بعد تقدير الله وتوفيقه: أني كنت في سفرومعي بعض العوام والأقارب، وكانوا لا يحفظون دعاء السفر، فقرأت الدعاء بصوت مرتفع ليحفظوه أو يدعوا به، ثم ذكرتهم بعظمة هذا الدعاء وما يحمل من معاني عظيمة، يغفل عنها كثير من المسافرين، فبدأت أذكر لهم فقرات هذا الدعاء وأشرحها فقرة فقرة باختصار، ثم فكرت في جمع موضوع في شرح هذا الدعاء في رسالة مستقلة، مع ذكر ما يتعلق به من فوائد وآداب، وأعرضت عن ذكر المسائل الفقهية؛ لأن الكتابات فيها كثيرة، وقد سألت بعض الإخوة هل قد ألفت كتب مستقلة في أحكام وفقه السفر فذكروا لي أن نعم ومنها كتاب لشيخنا العلامة يحيى الحجوري - حفظه الله تعالى - فأقتصرت على شرح حديث دعاء السفر وما يتعلق به لعل الله ينفع بذلك.

ومما دفعني على الكتابة في هذا الموضوع أن هذا الدعاء من جوامع المصطفى - صلى الله عليه وسلم، فقد شمل خيري الدنيا والآخرة، واشتمل على أمور عظيمة ومسائل كثيرة سيجدها القارئ في طيات هذه الرسالة، ربما يغفل عنها كثير من طلاب العلم فضلا عن العوام، فإننا نرى غفلة عن معاني هذا الدعاء عند كثير من المسافرين حتى عند بعض من يحفظه ويقرأه، فعزمت على توضيح ألفاظه وبيان معانيه، وبعض الفوائد المستنبطة منه، والآداب المتعلقة به، فوفق الله لكتابة هذه الرسالة، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الفصل الأول

مسائل تتعلق بالدعاء

أولاً:

حاجة الإنسان إلى الدعاء في الحضر عموماً و في السفر على وجه الخصوص:

إنه لا غنى لأحد عن الدعاء طرفة عين؛ لأنه اتصال بالقوي الذي بيده ملكوت السماوات والأرض وما بينهما، وتضرع بين يدي الروؤف الرحيم الذي نواصي العباد بيده سبحانه وتعالى، فلا منجا ولا ملجأ للعبد إلا إليه، فوجب الاعتصام بالله والالتصاق بجنابه والتوكل عليه ودعاؤه، ومن التجأ إلى غيره أو نسيه أو استغنى عنه خذله ووكله إلى ذلك الشيء الذي اعتمد عليه فيكون به هلاكه.

وكم أرشد الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - إلى الدعاء، وكم للدعاء من فضائل وثمار عاجلة وأجله، فإنه سلاح العبد وملاذه، وعصمته ومعاده، وبه توفيقه ونجاته، وحصنه الحصين من المردة والشياطين، وخلاصه من كربات الدنيا والآخرة، فكم من دعوة فرج الله بها عن البلاد والعباد، وكم من دعوة أهلكت أمما فصارت كأن لم تكن بالأمس، وكم من دعوة رفعت إلى السماء وفتحت لها أبوابها، ووصلت إلى العرش، وكم من مظلوم استجيبت دعوته، وكم من ظالم قصمته دعوة فأهلكته، وكم من ملهوف أنقذه الله بدعوة، وفرج عنه كربته، وتحول من شدة إلى رخاء، ومن مرض إلى شفاء، ومن فقر إلى غنى، ومن عسر إلى يسر، ومن خوف إلى أمان، وكل ذلك بسبب الدعاء، كيف لا؟! وربنا الكريم يقول في كتابه العظيم: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة: ١٨٦]

فينبغي على العبد أن يكثر من الدعاء، ولا يفتر عنه، ولا ييأس من الإجابة ولا يبخل على نفسه بالدعاء، فقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث، إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها" قالوا: إذا نكثر، قال: "الله أكثر" (١) أي: أكثر إجابة.

الشاهد من الحديث أن الداعي بين ثلاثة أمور كلها خير، وأن الدعاء لا يذهب سدى، إذا كان بشروطه وانتفاء موانعه كما سيأتي بيان ذلك قريباً.

(١) صحيح: صححه العلامةان الألباني والوادي، الألباني في صحيح الترغيب والترهيب - (٢ / ١٢٨) (١٦٣١) والوادي في الصحيح المسند (٤١٢) (٣٤٨/١)

ورواه البزار وأبو يعلى والحاكم.

فلا يعجز المسلم عن الدعاء في جميع أحواله وأوقاته، ولا يستهين به، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أعجز الناس من عجز عن الدعاء وأبخل الناس من بخل بالسلام". - رواه الطبراني عن أبي هريرة - رضي الله عنه - (١)

ولقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم ملازمًا للدعاء في سفره وحضره، وفي ليله ونهاره، وفي خلوته وجلوته، وهذا الدعاء والذكر الذي سنذكره في هذه الرسالة خير دليل على ملازمته للدعاء في سفره، وقد جاء في إحدى روايات دعاء السفر عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه - صلى الله عليه وسلم - بعد أن دعا بذلك الدعاء العظيم دعا ربه أن يغفر ذنوبه، وهو الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فغيره من باب أولى، فقد جاء أنه قرأ دعاء السفر "ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. ثُمَّ ضَحَكَ فَقِيلَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ قَالَ رَأَيْتُ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- فَعَلَّ كَمَا فَعَلْتُ ثُمَّ ضَحَكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ قَالَ « إِنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي » (٢).

فما أحوج المسافرين إلى لدعاء من باب أولى، لما يعتريه في سفره من التعب والإرهاق والمخاوف، ولحاجته لربه أكثر في تيسير أموره وقضاء حوائجه، لا سيما ودعوة المسافرين مستجابة لما روى أبو داود عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: « ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ دَعْوَةُ الْوَالِدِ وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ » (٣).

الحكمة من أن السفر مظنة إجابة الدعاء:

وكانت دعوة المسافرين مستجابة ؛ لشدة حاجته، وافتقاره إلى ربه، وحضور قلبه عند دعائه، وغربته عن بلده، وغيابه عن أهله وأقاربه، ولما يعتريه من العناء والإرهاق والتعب والجوع والعطش والسهرة أثناء سفره، فصار أشبه بالأشعث الأغبر الذي لو أقسم على الله لأبره.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال « السَّيْرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ نَوْمَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ فَإِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ وَجْهِهِ فَلْيُعْجَلْ إِلَى أَهْلِهِ » (٤).

وروى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال « رَبُّ أَشْعَثَ مَذْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ » (٥).

وعند الترمذي وغيره "أشعث أغبر ذي طمرين" (١) أي: شعث الشعر أغبر اللون والمنظر رث الهيئة والملبس.

(١) صحيح: رواه الترمذي: "٣٨٥٤" وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢ / ١٥٢) برقم (٦٠١)

(٢) سنن أبي داود - (٢ / ٣٣٩) وصححه الألباني في صحيح أبي داود - (٧ / ٣٥٤) (٢٣٤٢)

(٣) صحيح: صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب - (٢ / ١٣١) (١٦٤٨) وهو عند أحمد والترمذي .

(٤) صحيح البخاري (١٨٠٤). صحيح مسلم (٥٠٧٠)

(٥) مسلم (٧٣٦٩)

حاجة الإنسان إلى الذكر عموماً:

للذكر فضائل عظيمة، ومزايا عديدة، وأجور كثيرة، فهو حياة القلوب، وراحة الأبدان، ومطرده الشيطان، ولولم يكن من فوائد الذكر إلا أن الله يذكر الذاكرين، ويكون معهم في كل حين، ويباهي بهم الملائكة، وكفى به منقبة، وأنعم بها من ممدحة، فإن الله تعالى يقول في كتابه الكريم: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا} [البقرة: ١٥٢].

فمن ذكر الله بقلبه ولسانه، كان الله معه بنصره وتأيبه وحفظه وتسديده، ومن كان الله معه، فلا خادل له ولو اجتمع عليه من بأقطارها، فذكر الله حصن حصين من المردة والشياطين. فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأَ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأَ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِيرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْسِي أَتَيْتُهُ هَرُولَةً" (٢).

وهو حصن حصين من المردة والشياطين من الإنس والجن، فقد جاء عن الحارث الأشعري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخُمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَيَأْمُرَ بِهِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ... فذكرهن ومنها: " .. وَأَمَرَكُمُ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا، وَإِنْ مَثَلَ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَاتَى حَصْنًا حَصِينًا، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ فِيهِ، وَإِنْ أَحْصَنَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى " رواه الطبراني وغيره وصححه الألباني (٣).

والمسافر عنده فراغ وأوقات كثيرة أثناء سفره، فينبغي أن يغتنمها بالذكر والدعاء، وهناك حالات يشرع فيها أذكار مخصوصة مثل ركوب الرحلة وعند الصعود والهبوط أثناء السير، وإذا نزل مكانا أو مرَّ به ونحو ذلك.

فدليل الذكر عند ركوب الرحلة ما جاء عند أبي داود عن علي بن ربيعة قال شهدت علياً - رضي الله عنه - وَأَتَيْتُ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَّابِ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ثُمَّ قَالَ: (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. ثُمَّ قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. ثُمَّ ضَحِكَ فَقِيلَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ قَالَ رَأَيْتُ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- فَعَلَّ كَمَا فَعَلْتُ ثُمَّ ضَحِكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ قَالَ « إِنْ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي " (٤)

الشاهد قوله: (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ)

(١) سنن الترمذي (٣٨٥٤) وصححه الألباني في صحيح الترمذي - (٣ / ٢٣٩) (٣٠٢٨)

(٢) صحيح البخاري (٧٤٠٥) صحيح مسلم - (٦٩٨١)

(٣) - انظر صحيح الترغيب والترهيب - (١٤٩٨)

(٤) أخرجه أبو داود (٣٣٩ / ٢) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٢٦٠٢)

ودليل الذكر عند الصعود والهبوط أثناء السفر ما جاء عند البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: "كُنَّا إِذَا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا ، وَإِذَا نَزَلْنَا سَبَّحْنَا".^(١)
 عَنْ عَلِيٍّ الْأَزْدِيِّ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَّمَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ « (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالنَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا اللَّهُمَّ اطْوِ لَنَا الْبُعْدَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ ». وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ « آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ ». وَكَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجِيوشُهُ إِذَا عَلَوْا الثَّنَايَا كَبَّرُوا وَإِذَا هَبَطُوا سَبَّحُوا.. " ^(٢)

الشاهد قوله: وَكَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجِيوشُهُ إِذَا عَلَوْا الثَّنَايَا كَبَّرُوا وَإِذَا هَبَطُوا سَبَّحُوا.. "
 ومعنى (الثنایا) : واحدها الثنية وهى العقبة أو الجبل أو الطريق فيه.

ودليل الذكر عند النزول في مكان ما أو المرور به، ما جاء عند النسائي وغيره عن صُهَيْبٍ صَاحِبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا يَرِ قَرْيَةً يُرِيدُ دُخُولَهَا إِلَّا قَالَ حِينَ يَرَاهَا : "اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ، وَمَا أَظْلَلَنَ وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ ، وَمَا أَقْلَنَ وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ ، وَمَا أَضْلَلَنَ وَرَبَّ الرِّيَّاحِ ، وَمَا ذَرَيْنَ ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا " ^(٣)
 وروى مسلم عن خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمِ السُّلَمِيَّةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : « مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ ». ^(٤)

التمتع والتدبر للدعاء والذكر:

إن الذكر والدعاء إذا تواطأ معه القلب واللسان كان أجرهما أكثر، وفضلهما أعظم مما لو كان مجرد لفظ اللسان فقط، فينبغي التمتع والتدبر لمعاني الأذكار والأدعية، فالذكر إذا كان متواطئًا بالقلب واللسان كان أفضل من الجهاد في سبيل الله، وإذا كان الداعي مستحضرا لما يقوله بقلبه غير غافل ولا لاهٍ فقد سلك سببًا من أسباب الإجابة.
 فقد بين المصطفى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن الذكر أفضل من الجهاد في سبيل الله، وقد جاءت الأدلة في فضل الجهاد في سبيل الله، وما أعد الله للمجاهدين في سبيله في الجنة من المنازل الرفيعة والدرجات العالية .

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٣)

(٢) سنن أبي داود - (٢ / ٣٣٨) وصححه الألباني في صحيح أبي داود - (٢٣٣٩)

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨ / ١١٧) وصححه الألباني " السلسلة الصحيحة " (٦ / ٦٠٧) (٢٧٥٩)

(٤) أخرجه مسلم - - (٨ / ٧٦)

فقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أَلَا أُتَبِّخُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَرْكَأَهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ " قَالُوا: وَذَلِكَ مَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ". قال معاذ بن جبل ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله (١).

وقد استشكل بعض أهل العلم ذلك، فقالوا: كيف يكون الذكر أفضل من الجهاد، وقد جاءت أدلة كثيرة في أفضلية الجهاد في سبيل الله؟

والجواب: يكون للذكر مزية وفضل على الجهاد، إذا تواطأ ذكر اللسان مع حضور القلب، وذلك بأن يستحضر الذاكر عظمة ربه بقلبه ويتمعن معاني الذكر الذي ينطق به لسانه.

وقد جمع الحافظ ابن حجر - رحمه الله - بين أدلة فضيلة الجهاد في سبيل الله وأدلة أفضلية ذكر الله فقال: " وَطَرِيقُ الْجَمْعِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِذِكْرِ اللَّهِ فِي حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ الذِّكْرُ الْكَامِلُ، وَهُوَ مَا يَجْتَمِعُ فِيهِ ذِكْرُ اللِّسَانِ وَالْقَلْبِ بِالتَّفَكُّرِ فِي الْمَعْنَى وَاسْتِحْضَارِ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ يَكُونُ أَفْضَلَ مِمَّنْ يُقَاتِلُ الْكُفَّارَ... ثم قال: فَمَنْ اتَّفَقَ لَهُ أَنَّهُ جَمَعَ ذَلِكَ كَمَنْ يَذْكُرُ اللَّهَ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَاسْتِحْضَارِهِ وَكُلُّ ذَلِكَ حَالٌ صَلَاتِهِ أَوْ فِي صِيَامِهِ أَوْ تَصَدَّقِهِ أَوْ قِتَالِهِ الْكُفَّارِ مَثَلًا فَهُوَ الَّذِي بَلَغَ الْعَالِيَةَ الْقُصْوَى وَالْعِلْمَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَجَابَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْعَرَبِيِّ بِأَنَّهُ مَا مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ إِلَّا وَالذِّكْرُ مُشْتَرِطٌ فِي تَصَحُّحِهِ فَمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ بِقَلْبِهِ عِنْدَ صَدَقَتِهِ أَوْ صِيَامِهِ مَثَلًا فَلَيْسَ عَمَلُهُ كَامِلًا فَصَارَ الذِّكْرُ أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ مِنْ هَذِهِ الْحَيَثُوتِ. اهـ (٢).

وهكذا الشأن في الدعاء فقد روى الإمام أحمد وغيره عن عبد الله بن عمرو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْقُلُوبُ أَوْعِيَّةٌ، وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاةً عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ. (٣)

تنبيهات قبل الدعاء

الدعاء من أعظم العبادات، ومن وفقه الله للدعاء فقد أوتي خيراً كثيراً، قال بعض السلف: "إني لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء.."

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ أَلْهَمَهُ دَعَاءَهُ وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ، وَجَعَلَ اسْتِعَانَتَهُ وَدَعَاءَهُ سَبِيلاً لِلْخَيْرِ الَّذِي قَضَاهُ لَهُ، كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ

(١) صحيح: رواه أحمد وابن أبي الدنيا والترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب - (٢ / ٩٦) (١٤٩٣)

، والوادعي في الصحيح المسند (١٠٩-١١٠) (١٠٣٨).

(٢) فتح الباري (١١ / ٢١٠)

(٣) مسند أحمد - (٢ / ١٧٧) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة - (٢ / ٩٣) (٥٩٤)

عنه : " إني لا أحمل هم الإجابة ، وإنما أحمل هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه " اهـ^(١) .

فينبغي الحرص على الدعاء واحتساب أجره قبل الحرص على الإجابة ؛ لأنه عبادة عظيمة ، بل هو من أعظم العبادات ، بل هو حقيقة العبادة ، فقد روى أبو داود عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ ثُمَّ قَرَأَ: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} "^(٢)

وقد تقدم أن الدعاء مستجاب لا محالة، إما عاجلا ، وإما آجلا ، وإما أن الله يصرف عن الداعي شرا ما كان يحتسبه، لكن ينبغي مراعات آداب الدعاء ، وتحري أسباب الإجابة وأوقاتها، واجتناب موانعها .

أولا آداب الدعاء:

- آداب الدعاء كثيرة سنذكر أهمها جملة تعدادا دون تفصيل ، تجنباً للإطالة .
- الإخلاص في الدعاء .
 - حضور القلب عند الدعاء .
 - اليقين عند الدعاء .
 - الإلحاح في الدعاء .
 - استقبال القبلة .
 - عدم الاعتداء في الدعاء .
 - خفض الصوت والتذلل فيه وعدم رفع الصوت إلا لحاجة .
 - وغير ذلك .

ثانيا أسباب إجابة الدعاء:

- ١- الإخلاص .
- ٢- رفع الكفين عند الدعاء .
- ٣- دعاء الشعث الثقل رث الهيئة .
- ٤- التوسل إلى الله بالربوبية .
- ٥- الدعاء في السفر .
- ٦- استقبال القبلة .
- ٧- دعاء المضطر .
- ٨- انكسار القلب وافتقاره .

(١) اقتضاء الصراط المستقيم - (٢ / ٢٢٩)

(٢) أخرجه أبو داود - (١٤٧٩) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٢٩) .

- ٩- الإكثار من الدعاء في الرخاء من أسباب الاستجابة في الشدة.
- ١٠- المداومة على النوافل والإكثار منها.
- ١١- الدعاء بعد (لا إله إلا الله).
- ١٢- العزم والإلحاح في الدعاء.
- ١٣- حسن الظن بالله عند الدعاء.
- ١٤- اليقين عند الدعاء.
- ١٥- حضور القلب عند الدعاء.
- ١٦- الدعاء باسم الله الأعظم.
- ١٧- التوسل بأسماء الله الحسنى والصفات العليا.
- ١٨- التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة.
- ١٩- تسبيح الله وتحميده وتكبيره وتمجيده والصلاة على نبيه عند الدعاء.
- ٢٠- بر الوالدين.
- ٢١- الدعاء يوم عرفة.
- ٢٢- خفض الصوت في الدعاء.
- ٢٣- دعاء المريض والمكروب.

ثالثاً موانع الإجابة:

- ١- أكل الحرام
- ٢- الدعاء بإثم أو قطيعة رحم.
- ٣- استعجال الإجابة
- ٤- الغفلة عند الدعاء.
- ٥- الاعتداء في الدعاء.
- ٦- السكوت عن المنكر مع القدرة على تغييره.

رابعاً: أوقات الإجابة:

- ١: آخر ساعة من الليل وقت السحر:
- ٢- عند السجود.
- ٣: عند النداء وبين الأذان والإقامة:
- ٤: ساعة من يوم الجمعة:
- ٥: أدبار الصلوات (قبل السلام):
- ٦: في السفر:
- ٧: عند الصوم:
- ٨- عند نزول المطر:
- ٩- عند التحام الجيشين :
- ١٠- دعوة المظلوم:
- ١١- دعوة الوالدين:
- ١٢- دعوة المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب.

تنبيه: لمزيد من التفاصيل انظر كتابي (اغتنام فعل الخيرات في المواسم والمناسبات "باب اغتنام الدعاء")

إنذار للمسافر

على المسافر أن يتقي الله في سفره وأن يتجنب ما يسخطه الله ويأباه من المعاصي والمخالفات، فلعل هذه السفر خاتمة حياته، ولعله لا يرجع إلى أهله وماله، فكم من إنسان خرج من بيته وهو في كامل صحته وريعانة شبابه، فلم يرجع من سفره إلا محمولا على الأكتاف في تلك الصناديق، وربما ملطخا بالدماء قد مزقت أشلاؤه وكُسرت عظامه، وربما ضاعت بعض أوصاله، وربما لم يُعرف إلا ببنائه، قد جاء أجله، وانتهت لحظات حياته، وفرق الموت بينه وبين أحبته، وهدم لذاته، ويَتَمُّ أبناءه وبناته، فلم يبق له من دنياه إلا عمله وآثار حسناته، فينبغي على المسافر أن يعد العدة لهذا الأمر، وأن يجعله نصب عينيه، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك بقوله: "وإنا إلى ربنا لمقلبون" أي ميتون وراجعون، وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه، فلهذا ننصح بتقوى الله في السفر كما حرص النبي صلى الله عليه وسلم في أول الدعاء على سؤال الله التقوى والبر والعمل الصالح، وينبغي استحضار معاني هذا الدعاء العظيم والعمل بمقتضاها، فإنه أقرب للتقوى، وأخشى للمولى، وأخشع للقلب، وأرجى للعمل بمقتضى ذلك، فإذا جاء الأجل، وانقطع الأمل، وختم به العمل، فلعلها تكون خاتمة حسنة للمسافر، فقد جاء في صحيح البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ: النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا"^(١)

ونحذر المسافرين من ارتكاب المعاصي وعلى رأسها الأغاني، فإن غالب المسافرين يستمعون الأغاني في أسفارهم، بحجة التسلية وضياع الوقت أو تمشيته، والمطلوب المحافظة على الوقت واغتنامه بالذكر والدعاء واستماع القرآن الكريم والمواعظ الدينية والتسلية بطاعة الله فبذلك يمر الوقت بسلام، ويزداد الأمر سوءا إذا كان السائق من ضرب هؤلاء يواتيهم على ما أرادوا من المعاصي، أما إذا كان السائق ممن يتق الله فلا سبيل للركاب عليه، فمن أحب أن يركب وإلا ركب مع غيره.

ومن المؤسف أنك تجد من الركاب من ينكر عليهم الأغاني، فإذا بجميع الركاب يعترضون عليه، وينتقدونه، ويرمون بالتخلف والتشدد، ويرمقونه بأبصار حاده وكأنه أتى بمنكر عظيم، أو حرم عليهم ما أحل الله، بل ربما بعضهم احتج عليه بالأكثرية، وكأن المسألة انتخابات - والعياذ بالله - بحجة أن الأكثر يريد الأغاني وكأنهم مفوضون في دين الله! وهذا لَعَمْرُ اللَّهِ جهل عظيم، وأثر سيء من آثار دعاة الحزبية والبدع والضلالات الذين أضلوا الناس وأفتوهم بجواز الأغاني ومشروعية الانتخابات.

فإذا كان الأمر كذلك فننصح من كان في قلبه أثارة من خير أن يتقي الله في سمعه وقلبه، وله أن يشترط على السائق ألا يشغل الأغاني، فإن أبى فليركب مع غيره إن تيسر له ذلك، وإن ضاق عليه الأمر فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ولننكر ما استطاع أو ليكره المنكر بقلبه والله

(١) البخاري (٦٤٩٣)

المستعان ،فإن ماتوا في سفرهم على معصية فهي خاتمة سيئة ،ومن أنكر يكون قد برئت ذمته، ونجي من سوء الخاتمة والحمد لله.

تذكير المسافرين بنعمة المواصلات

يقول الله جل وعلا في كتابه الكريم: { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } [النحل : ٥٣]

وقال تعالى : {وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم : ٣٤]

وقال سبحانه : {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} [النحل : ١٨]
بين الله سبحانه وتعالى في الآية الأولى أنه أنعم على عباده نعمًا كثيرة، ظاهرة وباطنة، جليلة وخفية ،وأنها منه وحده لا من غيره، فيجب شكره عليها في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، لتدوم وتبقى، في الشدة والرخاء، ويزيد شاكرها، ويفوز بالرضى ،والدرجات العلى.

وبين في الآيتين الآخرين أن نعمه لا تدخل تحت الحصر لكثرتها، ولا يستطيع الناس حصرها، ولهذا تجد كثيرا من الناس من يجحد هذه النعم ويكفرها، أو يصرفها في معصية ربه ومساخطه ،ولهذا ختم الآية الثانية بقوله : { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [إبراهيم : ٣٤] أي ظلوم لنفسه بمعصية ربه ،كفور لنعمه بصرفها في مساخطه، ومع هذا فإنه يحلم عنهم، ويتوب على من تاب منهم، ويقبل الشكر اليسير منهم ،مع إنعامه الكثير لهم ،ولهذا ختم الآية الثالثة بقوله: { إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [النحل : ١٨]

فلأيامن العبد من زوال هذه النعم، لاسيما عند كفرها والتمادي في جحودها، وصرفها في معصيته، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } [إبراهيم : ٧]

وأذكر نفسي وإخواني المسافرين بالنعم التي أنعم الله علينا بها في هذا الزمان، والتي لم تكن في أسلافنا، ولو وجدت في زمانهم لازدادوا لها شكرا إلى شكرهم، ولاستخدموها في مرضي ربهم - سبحانه وتعالى - ومن هذه النعم المواصلات.

فقد كان أسلافنا - رحمهم الله - يسافرون على الخيل والإبل والبغال والحمير المسافات الطويلة، ويمكنون الأيام والأسابيع والشهور الكثيرة، مع قلة ذات اليد وعدم توفر جميع ما يحتاجونه في أسفارهم ،ومع هذا كانوا يسافرون في طاعة الله ،إما في حج وعمره أو جهاد في سبيل الله أو طلب علم ودعوة إلى الله تعالى ،فقد سافر جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - شهرا كاملا من أجل حديث واحد ليسمعه من عبد الله بن أنيس - رضي الله عنه - ويحفظه (١)، فلم يكونوا يسافرون في معصية كحال الكثير من المسلمين في زماننا هذا.

(١) الحديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير - (١٨ / ٤٠٢) وأحمد في مسنده (١٦٠٨٥) عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رضي الله عنه - قَالَ: بَلَغَنِي عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثٌ، سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ أَسْمَعْهُ مِنْهُ، فَخَشِيتُ أَنْ يَمُوتَ، أَوْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ، فَأَبْتَعْتُ بَعِيرًا، فَسَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلي، ثُمَّ سِرْتُ عَلَيْهِ شَهْرًا، حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ، فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَنَيْسٍ

فكيف نغفل أو نتغافل أن الله - تعالى - قد أنعم علينا في هذا الزمان نعمًا كثيرة لم تكن في حساب المتقدمين من المركبات البرية، والطائرات الجوية، والسفن البحرية، التي تقطع المسافات الطويلة في الأوقات القصيرة، وكيف ننسى أو نتناسى أنها وفّرت علينا الوقت والجهد والمال وغير ذلك، ففي الوقت الذي كانت الخيل والإبل ونحوها تقطع المسافة في شهر، ففي هذا الوقت تقطعها المراكب الحديثة في ساعات، فماذا نريد بعد هذه النعم؟! ومع هذا صار الكثير يستعملها في المخالفات والرحلات إلى أماكن الفساد والمعاصي إلا من رحم الله.

وقد أشار الله تعالى إلى هذه النعم، وإلى هذه المراكب قبل أربعة عشر قرنًا بقوله: { وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرَ لَتَركُبُوهَا وزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [النحل : ٨] الشاهد قوله: { وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }

قال المفسر السعدي - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى { وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير في زمانهم فإنه لو ذكر لم يعرفوه ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون،.. "اهـ" (١)

ولهذا ذكرنا الله قبل هذه الآية بآيات بهذه النعم وجمالها وزينتها ونفعها والاستفادة منها لنشكره عليها ونستعملها في طاعته وننتفع بها في معاشنا فقال سبحانه: { وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرَ لَتَركُبُوهَا وزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } [النحل : ٤ - ٩]

وقال تعالى في سورة أخرى: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ } [يس : ٧١ - ٧٣]

وقال تعالى في سورة أخرى: { وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ } [الزخرف : ١٢ - ١٤]

الأَنْصَارِي، فَقُمْتُ، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَخَرَجَ عَلَيَّ، فَعَانَقَنِي وَعَانَقْتُهُ، قَالَ: قُلْتُ: حَدِيثًا بَلَّغَنِي أَنَّكَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَظَالِمِ، خَشِيتُ أَنْ تَمُوتَ، أَوْ أَمُوتَ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَهُ. قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ"، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ قِبَلَ الشَّامِ، "عُرَاءُ حَفَاءَ غُرْلَا بُهْمًا". قَالَ: قُلْتُ: مَا بُهْمًا؟ قَالَ: "لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، فَيَنَادِي مُنَادِي بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ الدِّيَانُ، لَا يَتَّبِعُنِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَطْلُبُهُ بِمِظْلَمَةٍ حَتَّى اللَّطْمَةِ"، قَالَ: قُلْتُ: وَكَيْفَ، وَإِنَّمَا نَأْتِي عُرَاءَ غُرْلَا بُهْمًا؟ قَالَ: "الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ" وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٠٨)

(١) تفسير السعدي - (١ / ٤٣٦)

فذكرنا - سبحانه وتعالى - أنها من آياته العظيمة ونعمه الجسيمة، فسبحان من أمسك الطائرة في السماء وحفظ السفينة في الماء، وحرك السيارة في العراء، فهذا يدل على قدرة صانع حكيم، وقوي عليم، ورؤوف رحيم، إن في ذلك لآيات لمن كان له قلب أو عقل سليم. قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } [لقمان : ٣١]

وقال تعالى: { وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ } [يس : ٤١]
وقال تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ } [الملك : ١٩] فإذا كان هذا على مستوى الطير، فالطائرات والمركبات الفضائية من باب أولى.

وذكرنا - سبحانه وتعالى - بنعمة أخرى، وهي أنه سخر لنا هذه المراكب، وأجراها، وحفظها، ونجانا عليها، فأوجب شكره عليها، وتوعد من كفرها، فقال تعالى: { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرَّيْنَهُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [يونس : ٢٢ ، ٢٣]

وذكرنا - سبحانه وتعالى - بنعمة أخرى وهي ابتغاء الرزق عن طريقها، والتكسب بها. قال تعالى: { رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } [الإسراء : ٦٦]

وقال تعالى: { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِيَجْزِيَ الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الجاثية : ١٢ ، ١٣]

فيجب شكر هذه النعم بالقلب واللسان والجوارح، فهذه الثلاثة هي أركان الشكر، قال الشاعر:
أفاتكم النعماء مني ثلاثة *** يدي ولساني والضمير المحجبا

فيكون شكرها بالقلب: الإقرار بأنها من الله لا من غيره، ويكون شكرها باللسان: الاعتراف بها والثناء عليه، ويكون شكرها بالجوارح: باستعمالها في الخير وصرفها في مرضي الله، وما أباح الله، بحمل الأشياء المباحة والخيرية عليها، وعدم حمل المعاصي، وأدوات المعاصي، وأهل المعاصي عليها، فهذا من كفر النعم وليس من شكرها.
تنبيه: بعض الناس يظن أن الشكر مجرد لفظ اللسان، فيقول: نشكر الله على نعمه، ويعترف بأنها منه، لكن يصرفها في المعاصي والمخالفات، فهذا من كفر النعم.

الفصل الثاني

حديث دعاء السفر

قال الإمام مسلم - رحمه الله - : حَدَّثَنِي هَارُونُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّ عَلِيًّا الْأَزْدِيَّ أَخْبَرَهُ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ عَلَّمَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ».

وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ. وَزَادَ فِيهِنَّ: «أَيُّونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ» (١).

وقال الإمام مسلم أيضا: حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ ابْنُ عَلِيَّةَ عَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسَ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ وَسُوءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ" (٢).

وفي رواية عند أبي داود وغيره: "وَسُوءِ الْمُنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ" (٣).

وفي رواية عند أبي داود والترمذي عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ شَهِدْتُ عَلِيًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَاتَى بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الرِّكَابِ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ثُمَّ قَالَ: (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ) ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. ثُمَّ ضَحِكَ فَقِيلَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ قَالَ رَأَيْتُ النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- فَعَلَ كَمَا فَعَلْتُ ثُمَّ ضَحِكَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ قَالَ «إِنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي» (٤).

(١) أخرجه مسلم - (٣٣٣٩)

(٢) أخرجه مسلم - (٣٣٤٠)

(٣) انظر سنن النسائي - (٨ / ٢٧٢) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي - (١١ / ٤٩٩) (٥٤٩٩)

(٤) سنن أبي داود - (٢ / ٣٣٩) وصححه الألباني في صحيح أبي داود - (٧ / ٣٥٤) (٢٣٤٢)

المعنى العام لحديث دعاء السفر:

إن الناظر في هذا الدعاء يرى أنه دعاء عظيم، يحمل في عباراته معاني عظيمة وأدعية جامعة، اشتملت على خيري الدنيا والآخرة، فقد جمعت للعبد الخير كله، أثناء سفره في أمور دينه ودنياه.

فقد افتتح - عليه الصلاة والسلام - الدعاء بصفة عظيمة لله - سبحانه وتعالى - وهي صفة الكبرياء بقوله: "الله أكبر الله أكبر الله أكبر" وتكرار ذلك للمبالغة والزيادة في التعظيم، ثم نزه الله تعالى عن كل صفة عيب ونقص بقوله: "سبحان الذي.." وفيه الاعتراف بنعم الله المقتضي لشكره عليها، وهي تسخير الرواحل والمركوبات مع عجز الإنسان عن إيجادها، وفيه اللجوء إلى الله تعالى والاعتصام بجانبه أثناء السفر والتبرؤ من الحول والقوة، وفيه الدعاء بخيري الدنيا والآخرة، فبدأ أولاً بسؤال الله البر والتقوى والعمل الصالح، ثم دعا الله تعالى بتسهيل السفر وتقليل أتعابه وتقصير مسافاته، والاستعاذة به من مشقاته، وتغيير الأحوال وتشويه الأبدان وحصول المصائب والنكبات والخسران. وفيه التوكل على الله وطلب رفقته وصحبته واستحضار مراقبته، واستخلافه على ما خلفه المسافرين من ماله وأهله وتركته.

وفيه الاستعاذة من الانحراف والتردي، ومن الضلالة بعد الهدى، ومن النقصان بعد الزيادة، والاستعاذة من دعوة المظلوم فإنها مستجابة ربما تدمر المدعو عليه وتهلكه، فيالله ما أعظمه من دعاء، وما أغفل كثير من الناس عنه والله المستعان.

الشرح التفصيلي لحديث دعاء السفر:

قوله - رضي الله عنه -: ((كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ...))

يُشْرَعُ قِرَاءَةُ دَعَاءِ السَّفَرِ إِذَا رَكِبَ الْمَسَافِرُ وَخَرَجَ مِنْ دِيَارِ بَلَدِهِ، يُؤْخَذُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِ: "خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ.." وَلِهَذَا لَا يُشْرَعُ لِلْمَسَافِرِ الصَّائِمِ أَنْ يَفْطُرَ إِذَا كَانَ صَوْمَ فَرَضٍ أَوْ وَاجِبٍ وَلَا يَجْمَعُ وَيَقْصِرُ فِي بَلَدِهِ حَتَّى يَغَادِرَ دِيَارَهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ.. } [الآية [النساء : ١٠١] الشاهد قوله: { وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ } وهذا مبسوط في كتب الفقه في أحكام السفر.

قوله ((كَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَ الَّذِي...))

أَيُّ يَقُولُ: "اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ" ابْتَدَأَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هَذَا الدُّعَاءَ الْعَظِيمَ بِتَمْجِيدِ اللَّهِ وَتَعْظِيمِهِ، وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ، وَالتَّوَسَّلَ بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَقْرَبَ لِلْإِجَابَةِ، فَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَمِعَ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يَمَجِّدِ اللَّهَ تَعَالَى وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « عَجَلَ هَذَا ». ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِعَیْرِهِ « إِذَا صَلَّيْ أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ وَالتَّنَاءِ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ »^(١)

وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ لَفْظِ الْحَدِيثِ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي دُبْرِ الصَّلَاةِ بَعْدَ التَّشَهُّدِ وَقَبْلَ التَّسْلِيمِ، وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ الْحَدِيثِ عَلَى عُمُومِهِ، وَهُوَ مَتَى مَادَعَا الْعَبْدَ رَبَّهُ، فَيَسْتَحِبُّ لَهُ أَنْ يَبْدَأَ بِتَمْجِيدِهِ وَالتَّنَاءِ عَلَيْهِ وَيُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّهِ، ثُمَّ يَدْعُو بِمَا شَاءَ، كَمَا فِي حَدِيثِ الرَّجُلِ الَّذِي سَمِعَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ وَيَمَجِّدُهُ، كَمَا عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحَدِّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ: "لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ"^(٢).

فَمِنْ هَذَا الْبَابِ ذِكْرُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اسْمَ اللَّهِ الْكَبِيرِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ كَبِيرٍ وَأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ، فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْكُونِ بِأَسْرِهِ بِمَا فِيهِ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ وَالسَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا، قَالَ تَعَالَى: { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [الزمر : ٦٧]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : "مَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخِرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ"^(٣).

(١) صحيح: صححه الألباني في صحيح أبي داود - (٥ / ٢٢١) (١٣٣١) والوادعي في الصحيح المسند (٢/ ١٢٤) (١٠٦٤) وهو عند الترمذي وأحمد.

(٢) حسن: حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧ / ٢٣) (٣٤١١) وحسنه الوادعي في الصحيح المسند (١/ ٩١) (١٠١) ورواه أحمد والنسائي وابن ماجه

(٣) أشار إلى صحته الألباني في السلسلة الضعيفة (١١ / ٦٢٩)

يدل هذا على عظمته، وعزته وجبروته، وأن جميع المخلوقين من أدناهم إلى أقصاهم، ومن أولهم إلى آخرهم، ضعفاء أمام عظمته، أدلة أمام جبروته، لا قدرة لهم على شيء إلا بمشيئته، فقد روى البخاري ومسلم - رحمهما الله تعالى - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رضي الله عنه - قَالَ جَاءَ حَبْرٌ إِلَى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالنَّارَ عَلَى إصْبَعٍ وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إصْبَعٍ ثُمَّ يَهْزُهُنَّ فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ تَصْدِيقًا لَهُ ثُمَّ قَرَأَ (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) ^(١)

فمن تكبر على الله أدله وأهانته، وأسكنه ناره، فقد روى ابن ماجه وغيره عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا ، أَلْفَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ " ^(٢) .
ففي هذا الدعاء العظيم الاعتماد عليه والانعطاع عن المخلوقين إذ لا يستطيعون جلب النفع ولا دفع الضر عن المسافرين؛ لأنهم لا يملكون من الأمر شيئاً، فالكل مفتقرون إليه سبحانه؛ لأن الأمور إليه، والنفع والضر بيديه، وقلوب العباد بين أصبعيه، وفيه التبرء من الحول والقوة والركون إليه سبحانه لا إله إلا هو.

وقوله: ((سُبْحَانَ الَّذِي..))

فيه التنزيه لله من كل عيب أو نقص أو عجز، فإن "سبحان" مفعول مطلق بمعنى أنزهه تنزيهاً، فينزه عن الشريك والند والصاحبة والولد، وينزهه عن الموت والسنة والنوم والعجز، ويلزم من ذلك إثبات أضعافها من الحياة الكاملة والقيومية الشاملة، والقدرة العظيمة ونحو ذلك، ومن قدرته: إيجاد آلات السفر ومراكبه وأدواته ومستلزماته، وقدرته على حفظ المسافرين وإعانتهم، وتيسير أموره وإرجاعه إلى بلده فلا يعجزه شيء من ذلك سبحانه وتعالى، فنزهه نبينا صلى الله عليه وسلم - ربه المقدس وعظمه؛ لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة التي من جملتها أن سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ..

وقوله: ((الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ..))

تقدم أنفاً أن هذه المراكب من النعم التي أنعم الله على عباده، لا سيما هذه المراكب الحديثة المتطورة، التي تبهر العقول، وتدل على العليم الخبير، فهو الذي سخرها وهياها وأوجدها، ويسر السبل لمعرفة، وعلم الإنسان صنعها، وألهمه إلى معرفة دقائق أسرارها، وهداه إلى اكتشافها، حتى صارت بالكيفية التي نشاهدها، فهو الذي شاءها وأوجدها وخص أهل هذا

١- صحيح البخاري - (٤٨١١) صحيح مسلم - (٧٢٢٣)

٢- سنن ابن ماجه - (٢٧٢ / ٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢ / ٦٩) (٥٤١)

الزمان بها، وقد أنعم على نبيه سليمان - عليه السلام - بما هو أعظم منها، وخصه بملك لا يبلغه أحد من بعده، إذ سخر له الريح تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ، غدوها شهر ورواحها شهر، أي: أنها تحمل بساطة في أول النهار مسيرة شهر وترده في آخر النهار مسيرة شهر، أي تقطع مسافة شهر في جزء من النهار، وسخر له الجن والإنس والطير، وعلمه لغات غير آدميين.

ففي هذا الدعاء التنزيه والتقديس لله - تعالى - الذي سخر هذه النعم وحده لا شريك له، فينبغي الاعتراف بهذه النعم، ونسبتها إليه وحده، ولا يجوز نسبتها إلى البشر فإنهم مجرد سبب هيأهم الله لذلك، ولهذا قال بعد ذلك: "وما كنا له مقرنين" أي ما كان هذا بقدرتنا ولا باستطاعتنا لا إيجاباً ولا استخداماً، ولهذا قال عقب ذلك في رواية أبي داود: "الحمد لله الحمد لله الحمد لله، الله أكبر الله أكبر الله أكبر" ثناء على الله واعترافاً بنعيمه وشكراً له، فله الحمد والمنة وله الثناء الحسن.

ومن الجهل العظيم، نسبتها إلى الكفار، فبعض الناس يطعن في المسلمين؛ لتخلفهم عن الصناعات!! ويمدح الكافرين على ذلك، ويغفل أن الله تعالى جعل الدنيا جنتهم، وزينها لهم، وأنعم عليهم بها فتنة لهم، ثم يوم القيامة يكونون من الخاسرين، وفي جهنم من الأسفلين، ولا يغفل عن هذا إلا الجاهلون، قال تعالى: { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } [البقرة: ٩٦] وقال تعالى: { يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } [الروم: ٧]

قال النووي - رحمه الله - : "مَعْنَى (مُقْرِنَيْنِ) مُطَبِّقَيْنِ أَيَّ مَا كُنَّا نَطْبِقُ قَهْرَهُ وَاسْتِعْمَالَهُ لَوْلَا تَسْخِيرُ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ لَنَا" اهـ^(١)

قال المفسر السعدي - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: { وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ } أي: لولا تسخيرها لنا ما سخر من الفلك، والأنعام، ما كنا مطبقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى، سخرها وذلها ويسر أسبابها" اهـ^(٢).

فانظر - على سبيل المثال - إلى الفرس أو الجمل، كيف هيأه الله لهذا وأعطاه القوة على السير الطويل والحمل الثقيل، وذلله للعبد، فلو كان متوحشاً ما انتفع به أحد من الناس، ولكن الله تعالى بنعمته جعله منقاداً لابن آدم، فترى الطفل الصغير يقود الجمل الكبير أو يركب عليه، وانظر مثلاً إلى السيارة أو الطائرة أو السفينة كيف سخرها الله تعالى للإنسان، وأعطاه القدرة على قيادتها وإصلاحها، رغم ثقلها وكثافة حجمها وسعتها، وهيأها لحمل المئات من الناس والأثقال، ولو اجتمع المئات من الناس على حملها لما استطاعوا! قال سبحانه وتعالى: { وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ } [يس: ٧٢]

وهذا الدعاء عام في كل مركوب، سواء كان برياً أو بحرياً أو جويّاً، من الحديد أو من الحيوان أو غير ذلك؛ لعموم قوله: "سخرلنا هذا.." ولم يعينه بشيء أو يخصصه، ولعموم قوله تعالى: { وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [النحل: ٨]

(١) انظر شرح النووي على مسلم (٥ / ٥)

(٢) انظر تفسير السعدي - (١ / ٧٦٣)

قوله: ((وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ...))

أي راجعون إلى الله ليحاسبنا على أعمالنا، فيجازي المحسنين بالإحسان، والمسيئين بالإساءة، ويزيد الشاكرين من فضله، ويعاقب الجاحدين بعدله، ففيه إشارة إلى شكر هذه النعم، وفيه إنذار لمن كفر هذه النعم واستعملها في معصية الله - سبحانه وتعالى - ؛ لأن المراجعة والمنقلب إليه.

قال المفسر الطبري - رحمه الله - وقوله: ((وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ)) يقول جل ثناؤه: وليقولوا أيضا: وإنا إلى ربنا من بعد مماتنا لصائرون إليه راجعون" اهـ^(١).
ويحتمل منقلبون إلى حكمه وما قدره وقضاه...

قال القاري - رحمه الله: ((وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا)) أَي: حُكْمِهِ ، وَأَمْرِهِ أَوْ قَضَائِهِ ، وَقَدَرِهِ أَوْ جَزَائِهِ ، وَأَجْرِهِ (لَمُنْقَلِبُونَ) أَي: رَاجِعُونَ قَالَ ابْنُ حَجَرٍ : وَنَاسَبَ ذِكْرُهُ لِأَنَّ الدَّابَّةَ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ التَّلَافِ" اهـ^(٢).

مناسبة ذكر قوله: ((وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ)) بعد ذكر تسخير هذه النعم:

فيه إشارة إلى الانتقال من السفر القصير - سفر الدنيا - إلى السفر الطويل - سفر الآخرة، فإن أهل الدنيا مسافرون إلى الله تعالى، فإن الدنيا دار سفر والآخرة هي دار القرار والإقامة الأبدية، وفيه تنبيه للغافل عن الموت ليذكره ويكون نصب عينه؛ لأن هذا السفر قد يكون سبباً لوفاته، فربما قدر الله شيئا على المركبة فيموت ولا يرجع إلى أهله، فيكون منقلبه إلى ربه في سفره ذلك.

ومثله قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَنَّكُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَمَاتًا لِلْمُقْوِينَ } [الواقعة: ٧١ - ٧٣]

الشاهد قوله: { لِلْمُقْوِينَ } أي للمسافرين، إشارة إلى أن أهل الدنيا مسافرون إلى الله.

قال المفسر السعدي - رحمه الله - : { نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً } للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطا يسوق به عباده إلى دار النعيم، { وَنَمَاتًا لِلْمُقْوِينَ } أي: المنتفعين أو المسافرين، وخص الله المسافرين؛ لأن نفع المسافر بذلك أعظم من غيره، ولعل السبب في ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعا للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار" اهـ^(٣)

قال المفسر ابن كثير - رحمه الله - : { وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ } أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله: { وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى } [البقرة: ١٩٧]

(١) انظر جامع البيان (تفسير الطبري) - (٢١ / ٥٧٧)

(٢) انظر جمع الوسائل في شرح الشرائع - (٠ /)

(٣) انظر تفسير السعدي - (١ / ٨٣٥)

وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى: { وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ } [الأعراف: ٢٦]. اهـ^(١).

قال البيضاوي : اتصال قوله : " وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ " بما قبله؛ لأن الركوب للنقل والنقلة العظمى هو الانقلاب إلى الله تعالى ، فينبغي للراكب أن لا يغفل عنه ، ويستعد للقاء الله ، يعني من شكر هذه النعمة أن يذكر عاقبة أمره ، ويعلم أن استوائه على مركب الحياة كاستوائه على ظهر ما سخر له، ما لم يكن في المبدأ مطيقاً له ولا يجد في المنتهى بداً من النزول عنه ، كذا في اللمعات.. اهـ^(٢).

قوله : ((اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى ..)):

قوله : (اللَّهُمَّ) أي: يا الله ، فإن أصلها كذلك وحذفت ياء النداء وعوض عنها بالميم.

قال ابن الجوزي - رحمه الله - : "قوله (اللهم): قال الزجاج: قال الخليل وسيبويه وجميع النحويين الموثوق بعلمهم: اللهم بمعنى يا الله، والميم المشددة زيدت عوضاً عن الياء؛ لأنهم لم يجدوا الياء مع هذه الميم في كلمة واحدة، ووجدوا اسم الله عز وجل مستعملاً ب(يا) إذا لم يذكروا الميم، فعلموا أن الميم في آخر الكلمة بمنزلة (يا) في أولها، والضمة التي في الهاء ضمة الاسم المنادى المفرد" اهـ^(٣).

ولفظ الجلالة [الله] ذهب كثير من أهل العلم إلى أنه هو الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب . قال التستري : " الله : هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها" وممن قال بهذا ابن خزيمة والطبري والطحاوي والإمام الألباني والعلامة الحجوري وغيرهم .

وبدأ النبي - صلى الله عليه وسلم بسؤال ربه ما يتعلق بحفظ دينه من البر والتقوى والعمل الصالح ؛ لأنه هو الأصل ، ثم سأله حفظ ما يتعلق بدنيائه، بخلاف بعض الناس ربما بدأ بسؤال ربه ما يتعلق بدنيائه مع الإلحاح بالدعاء والغفلة عما يتعلق بالدين إلا من رحم الله ، بل بعضهم ربما دعا لدنيائه ولم يدعُ لدينه، وكأنه خلق للدنيا فقط، وهذا جهل عظيم وغفلة شديدة ، فينبغي الاهتمام بالدعاء في باب الدين أكثر من الدنيا، ولا مانع من أن يدعو العبد لدنيائه، ولكن لا يغفل عن الدعاء بأن يحفظ الله له دينه ويثبتته عليه ويسأل الله الجنة ويعوذ به من النار، فإنه إن صلح دين العبد صلحت دنيائه وآخرته ، وإن فسد دينه فسدت دنيائه وآخرته .

(١) انظر تفسير ابن كثير / دار طيبة - (٧ / ٢٢٠)

(٢) انظر مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح - (٨ / ٣٦٢)

(٣) انظر كشف المشكل من حديث الصحيحين - (١ / ٢)

الفرق بين البر والتقوى:

البر والتقوى إذا اجتماعا افترقا وإذا افترقا اجتماعا، بمعنى أنه إذا ذكر البر والتقوى في موضع واحد، صار لكل واحد منهما معنى مغاير للآخر، وإذا انفرد أحدهما عن الآخر أخذ معنى الاثنين.

فإذا جاء البر مفردًا أو جاء التقوى مفردًا، يكون المعنى: فعل المأمورات وترك المنهيات، وإذا جاء البر والتقوى مجتمعين صار معنى التقوى ترك المنهيات ومعنى البر فعل المأمورات، فكل منهما مكمل للآخر.

قال السعدي - رحمه الله -: "البر. وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة." اهـ^(١)

عرفهما حسب ما تقدم من اجتماعهما.

قوله: "وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى ..")

هذا من باب عطف الخاص على العام، وإلا فإن العمل الصالح يدخل تحت البر، ولكن من باب التأكيد وزيادة الخير.

وقوله: "من العمل.." أي العمل الصالح من أعمال الآخرة، بدليل السياق قبله وبعده، فقد ذكر قبله البر والتقوى، وذكر بعده ما يرضى به. ، والمعنى: أي: وأسألك من الأعمال: الأعمال الصالحة التي ترضيك عني.

وقوله: "ما ترضى" صفة موضحة (كاشفة) فإن العمل الصالح كله يرضاه الله، وليس هناك من الأعمال الصالحة ما لا يرضاه، ومثله قوله تعالى: { وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } [الأعراف: ٣٣] صفة موضحة أن البغي بغير حق، وإلا ليس هناك بغي بحق.

قوله: "اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا..."

أي سهل لنا مشاق السفر..

فبعد أن سأل النبي - صلى الله عليه وسلم - البر والتقوى والعمل الصالح في السفر، شرع في سؤال الله ودعائه تسهيل السفر وتخفيف عنائه، وذلك لما يشتمل عليه السفر من عناء وأتعاب وإرهاق وجوع وعطش وسهر، كما بينه في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ نَوْمَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ فَإِذَا قَضَى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ وَجْهِهِ فَلْيُعْجِلْ إِلَى أَهْلِهِ » متفق عليه^(٢). حتى أنك تجد بعض المسافرين يستعملون الأدوية وقاية من الصداع والغثيان ونحوه من شدة ما يعانون من تعب الأسفار، فأعظم دواء هو هذا الدعاء بإذن الله رب العالمين، ولا مانع من فعل الأسباب الحسية، وتعاطي الأدوية، واستخدام الوقايات النافعة بإذن الله.

(١) انظر تفسير السعدي - (١ / ٢١٨)

(٢) البخاري (١٨٠٤) ومسلم (٥٠٧٠)

قال الشيخ عبد المحسن العباد - حفظه الله - قوله: [(اللهم هون علينا سفرنا هذا)]. يعني: اجعله هيناً سهلاً لا يصيبنا فيه نصب ولا تعب، ولا مشقة" اهـ^(١).

معنى قوله: ((وَاطُوا عَنَّا بُعْدَهُ..))

أي: قَرَّبْ لَنَا مسافة السفر واجعل البركة في الوقت الذي نقطعه فيها، وارفع عنا مشقة السير فيها، واجعلنا نقطعها بأقرب وقت وأيسر جهد وأقل نفقة. بلا عناء ولا تعب ولا كلفة. والطيّ: ضد النشر، وهو الجمع والضم، يقال طوى الكتب إذا جمعها وطوى الكتاب إذا ضم بعضه إلى بعض، وطوى المسافة إذا قربها، ومنه قوله تعالى: { يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } [الأنبياء: ١٠٤] وعند أبي داود وغيره عن أنس - رضي الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: «عَلَيْكُمْ بِالدُّلْجَةِ فَإِنَّ الْأَرْضَ تَطْوَى بِاللَّيْلِ»^(٢).

ومعنى الدلجة: أي السير بالليل، ومعنى: "تَطْوَى بِاللَّيْلِ" أي: أنها تقرب مسافاتها بتيسير المشي وقطع ما لا يرى منها.^(٣)

وقد جاءت رواية عند النسائي والترمذي وغيرهما وصححها الألباني - رحمه الله - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في دعاء السفر: "اللَّهُمَّ ازْوِ لَنَا الْأَرْضَ ، وَهَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ.." ^(٤)

والمعنى أي: "اجْمَعْهَا وَاطْوِهَا مِنْ زَاوِي يَزْوِي زَيًّْا"^(٥) "وقرب لنا البعد وسهل لنا الوعر وأصل الانزواء الانضمام والانقباض"^(٦)

وقال التبريزي - رحمه الله - في معنى قوله: ((واطو عنا بُعد الأرض)) أي: قرب لنا بُعد هذا السفر . قيل: هو عبارة عن تسير^(٧) السير بإعطاء القوة له ولمركوبه . وقال ابن حجر: اطو لنا بعده حقيقة إذ ورد ((أن الله ملائكة يطوون الأرض للمسافر كما تطوى القراطيس))^(٨)، أو المراد خفف مشاقه . قلت: لا مانع من حمله على الحقيقة ففيه إشارة إلى طي المكان والزمان ، والمعنى ارفع عنا مشقة السفر بتقريب المسافة البعيدة لنا حساً" اهـ^(٩).

(١) انظر شرح سنن أبي داود - عبد المحسن العباد - (١٤ / ٧٤)

(٢) سنن أبي داود - (٢ / ٣٣٣) - "السلسلة الصحيحة" ٢ / ٢٩٨ : (٦٨١)

(٣) انظر شرح صحيح البخاري - لابن بطال - (٥ / ١٤٥)

(٤) انظر السنن الكبرى للنسائي - (٨ / ١٠٧) وصححه الألباني في صحيح الترمذي - (٣ / ١٥٤) (٢٧٣٤)

(٥) انظر تحفة الأحوذى - (٨ / ٣٣٤) للمباركفوري

(٦) انظر الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار - (٩ / ٤٧٩) لابن عبد البر.

(٧) لعل الصواب: بتيسير السير... والله أعلم.

(٨) منكر: ضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة - (١٤ / ٧٩٤) (٦٨٤٧)

(٩) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح - (٨ / ٣٦٣)

وقال العظيم آبادي - رحمه الله : (اطو لنا الأرض) : "أمر من الطي أي قربها لنا وسهل السير فيها" اهـ^(١)

وقال الشيخ عبد المحسن العباد- حفظه الله :-قوله: [(اللهم اطو لنا البعد)] . يعني: المسافة الطويلة اجعلنا نقطعها بسهولة ويسر، بدون أن نشعر بعناء ومشقة.
مر بنا الحديث: (عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى)^(٢)، معناه أن السير في الليل فيه نشاط وقوة، ولا يوجد عناء ومشقة مثلما يكون في النهار من الحر وشدة الشمس، فيكون هناك نشاط، فيقطع الناس المسافة وهم مرتاحون لم يشعروا بنصب ومشقة، أما إذا كانوا في مشقة فإنهم يجدون أنهم يمشون والأرض أمامهم طويلة ما حصل لهم ارتياح في السير" اهـ^(٣) .

قوله ((اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ...))

دعا نبينا - صلى الله عليه وسلم - ربه أن يكون رفيقه في سفره وخليفته في أهله، لأنه لا يعلم ما يواجهه في طريقه، ولا يعلم ما يخلفه في أهله في غيبته، وهذا شامل له ولأئمة، فإنه يريد أن يربطهم بربهم، ويعلمهم كيف يتصلوا به في جميع شئونهم وأوقاتهم، فيكون عليه توكلهم واعتمادهم في سفرهم وحضرهم، وأن إليه مآلهم، والمعنى أن يكون حافظا لهم، ومعيناً لهم في أسفارهم، وميسرا لأموالهم، وقاضيا لحوائجهم، وحافظا لدينهم فيعينهم على طاعته، ويعصمهم عن معصيته، ولهذا جاء في بعض الروايات كما عند الترمذي وغيره : " اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا بِنُصْحٍ وَأَقْلِبْنَا بِذِمَّةٍ"^(٤)

وفي رواية عند الحاكم "اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا بِصُحْبَةٍ ، وَأَقْلِبْنَا بِذِمَّةٍ"^(٥) والمعنى: " أي احفظنا بحفظك في سفرنا وارجعنا بأمانك وعهدك إلى بلدنا"^(٦)
فصحبة الله - سبحانه وتعالى - للمؤمن بأن يكون معه، يحفظه، ويوفقه، ويسدده، ويعينه على أمور دينه ودنياه، وهذه الصحبة هي المعية الخاصة بالمؤمن، وليس للكافر من ذلك شيء كما قال تعالى: { أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّْا يُصْحَبُونَ } [الأنبياء : ٤٣] ليس لهم صحبة من الله - تعالى - .

قال السعدي - رحمه الله - : "أي: لا يعانون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم يعانون من الله، فهم مخذولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة" اهـ^(٧)

(١) انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود (مراجع) - (٧ / ٢٥٩)

(٢) صحيح: رواه أبو داود وغيره وصححه الألباني في صحيح أبي داود - (٧ / ٣٢٣)(٢٣١٧)

(٣) انظر شرح سنن أبي داود - (١٤ / ٧٥-٧٤)

(٤) انظر سنن الترمذي (٥ / ٤٩٧)(٣٤٣٨) وصححه الألباني في صحيح الترمذي - (٣ / ١٥٤)(٢٧٣٤) .

(٥) انظر المستدرک ٤٠٥ - (٢ / ٩٩)

(٦) انظر النهاية في غريب الأثر - (٣ / ١٦) لابن الأثير.

(٧) انظر تفسير السعدي - (١ / ٥٢٤)

قال المباركفوري - رحمه الله :- (اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ)، أَي: الْحَافِظُ وَالْمُعِينُ، وَالصَّاحِبُ فِي الْأَصْلِ الْمَلَاذِمُ، وَالْمُرَادُ مُصَاحَبَةُ اللَّهِ إِيَّاهُ بِالْعِنَايَةِ، وَالْحَفِظُ، وَالرَّعَايَةُ، فَتَبَّهَ بِهَذَا الْقَوْلِ عَلَى الْإِعْتِمَادِ عَلَيْهِ وَالْإِكْتِفَاءِ بِهِ عَنْ كُلِّ مُصَاحِبٍ سِوَاهُ" اهـ^(١).

وقال الباجي: " وَقَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ": بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَخْلُو مَكَانٌ مِنْ أَمْرِهِ وَحُكْمِهِ فَيَصْحَبُ الْمُسَافِرَ فِي سَفَرِهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُ وَيَرْزُقَهُ وَيُعِينَهُ وَيُؤَقِّقَهُ، وَيُخْلِفُهُ فِي أَهْلِهِ بِأَنْ يَرْزُقَهُمْ سَعَةً، فَلَا حُكْمَ لِأَحَدٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ غَيْرُهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } " اهـ^(٢)

قوله: ((وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ..))

قال العظيم آبادي - رحمه الله :- الْخَلِيفَةُ مَنْ يَقُومُ مَقَامَ أَحَدٍ فِي إِصْلَاحِ أَمْرِهِ" اهـ^(٣)

وقال المباركفوري - رحمه الله :- "الْخَلِيفَةُ مَنْ يَقُومُ مَقَامَ أَحَدٍ فِي إِصْلَاحِ أَمْرِهِ . قَالَ التُّورَبَشْتِيُّ : الْمَعْنَى أَنْتَ الَّذِي أَرْجُوهُ وَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي بِأَنْ يَكُونَ مُعِينِي وَحَافِظِي وَفِي غَيْبَتِي عَنْ أَهْلِي أَنْ تَلَمْ شَعْنَهُمْ وَتُدَاوِي سَقَمَهُمْ وَتَحْفَظَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ.." اهـ^(٤)

وقال التبريزي - رحمه الله :- (والخليفة في الأهل) ، الخليفة من ينوب عن المستخلف ، فيما يستخلفه فيه يعني الذي يقوم مقام أحد في إصلاح أمره ، والمعنى أنت الذي أرجوه وأعتد عليه في غيبتني عن أهلي ، أن يلم شعثهم ويثقف أودهم ويداوي سقمهم ويحفظ عليهم دينهم وأمانتهم.." اهـ^(٥)

ولهذا يشرع للمسافر أن يستودع الله أهله عند سفره وهم يودعونهم.

فقد روى ابن ماجه وغيره عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ : وَدَّعَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : "أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ الَّذِي لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ".^(٦)

وعند أبي داود وغيره عَنْ قَزَاعَةَ قَالَ قَالَ لِي ابْنُ عُمَرَ - رضي الله عنهما - هَلُمَّ أَوْدِعْكَ كَمَا وَدَّعَنِي رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ »^(٧).

فينبغي على المسافر أن يستحضر ذلك ، بأن يدعو لأهله ويعتمد على الله في حفظهم، فإن كثيراً من الناس يغفل عن هذا ، وربما وكلهم إلى غيره من الناس فلا يحصل لهم تلك العناية الكافية، ولا الأمن التام، وربما لحقهم الضرر بعده؛ لأنه وكلهم إلى غير الله وغفل عن الله -

(١) انظر سنن ابن ماجه - محقق ومشكول - (٩٧ / ٤) وحسنه الألباني في الصحيحة (١٦ و ٢٥٤٧)

(٢) انظر المنتقى - شرح الموطأ - (٤٣١ / ٤)

(٣) انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود (٢٥٩ / ٧)

(٤) انظر سنن ابن ماجه - محقق ومشكول - (٩٧ / ٤) وحسنه الألباني في الصحيحة (١٦ و ٢٥٤٧)

(٥) انظر مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح - (٣٦٤ / ٨)

(٦) انظر تحفة الأحوذى - (٣٣٤ / ٨)

(٧) انظر سنن أبي داود - محقق وبتعليق الألباني - (٣٣٩ / ٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود - (٣٥٣ / ٧) (٢٣٤٠)

تعالى - وكان الذي ينبغي هو الاعتماد على الله في ذلك أولاً ، ثم لا مانع من اتخاذ الأسباب الشرعية بعد ذلك مما يجري بين الناس ويتعارفون عليه .

قوله : "الْأَهْلُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ «.

استعاذ النبي - صلى الله عليه وسلم - مما قد يعتريه في سفره من الأتعاب والإرهاق وتغير الأحوال ، من الهم والحزن وسوء العاقبة والمرجع وحصول المصائب ونحو ذلك .
وقبل أن نعرف معاني هذه الألفاظ ، نريد أن نتطرق إلى معنى الاستعاذة ، لأن كثيراً من الناس تجري على ألسنتهم الاستعاذة ولا يعرفون معناها ، وهذا خطأ ، فلا يتساهل المسلم في معرفة معاني الأوراد والأدعية الشرعية ، لا سيما التي تتكرر في غالب أيامه ، بل ربما تكرر في اليوم الواحد مرات عديدة ، مثل الاستعاذة فإنها تتكرر في غالب الساعات وهي من الأوراد اليومية وأذكار الصلوات نحو ذلك .

معنى الاستعاذة:

الاستعاذة: هي الالتجاء إلى الله والاعتصام بجنابة من شر كل ذي شر ، وهي نوع من الدعاء ،

تعريف الاستعاذة لغة: مأخوذ من عوذ : عاذ به يَعُوذُ عَوْذاً وَعِيَاذاً وَمَعَاذاً لاذ فيه ولجأ إليه واعتصم ومعاذ الله أي عياداً بالله ، قال الله عز وجل: {مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعِنَا عَنْهُ} أي نعوذ بالله معاذاً أَنْ نَأْخُذَ غير الجاني بجنابته" اهـ^(١) .
اصطلاحاً : هي الالتجاء والاعتصام ، فالعائد قد هرب إلى ربه والتجأ إليه مما يخافه عموماً وخصوصاً .

قال ابن القيم - رحمه الله - : « وما يقوم في القلب من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتذلل له ، أمر لا تُحيط به العبارة » اهـ^(٢) .
فإذا كانت الاستعاذة مشتملة على أعمال القلب فلا يجوز صرفها إلا لله سبحانه وتعالى ، وهي عبادة لأنها بمعنى الطلب ، والطلب نوع من أنواع الدعاء ، والدعاء عبادة كما تقدم .
وعرفها ابن كثير - رحمه الله - بقوله : « والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر ، والعيادة تكون لدفع الشر ، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي :

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره » اهـ^(٣)

(١) ابن منظور لسان العرب (٤٦٤/٩)

(٢) بدائع الفوائد - (٢ / ٤٢٧)

(٣) تفسير ابن كثير / دار طيبة - (١ / ١١٤)

معنى ((وعثاء السفر)):

استعاذ النبي - صلى الله عليه وسلم - من وَعَثَاء السفر، وهو شدته ومشقته وأتعبه، وبالمقابل فقد دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - ربه أن يسهل له السفر، فلا مانع من أن يدعو العبد ربه من الخير والنفع، ويستعيز به من الشر والضرر، وهذا من باب اللياذ والعياذ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل الله الجنة، ويستعيز به من النار. قال القرطبي - رحمه الله -: ((وعثاء السفر)) : مشقته ، وشدته . وأصله من الوعث : وهو الوحل ، والدَّهَس "اهـ" (١) ومعنى الدهس هو المكان الذي يشق المشي فيه فجعل مثلاً لكل ما يشق. (٢)

وقال النووي - رحمه الله -: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ) : الْوَعَثَاءُ بِفَتْحِ الْوَاوِ وَإِسْكَانِ الْعَيْنِ الْمُهِمَّةُ وَبِالنَّاءِ الْمُثَلَّثَةُ وَبِالْمَدِّ وَهِيَ الْمَشَقَّةُ وَالشَّدَّةُ وَ"اهـ" (٣)

قال المباركفوري - رحمه الله -: (مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ) : بِفَتْحِ الْوَاوِ وَإِسْكَانِ الْعَيْنِ الْمُهِمَّةُ وَبِالنَّاءِ الْمُثَلَّثَةُ بِالْمَدِّ أَيْ شِدَّتِهِ وَمَشَقَّتِهِ وَأَصْلُهُ مِنَ الْوَعَثِ وَهُوَ الرَّمْلُ وَالْمَشْيُ فِيهِ يَشْتَدُّ عَلَى صَاحِبِهِ وَيَشَقُّ يُقَالُ رَمَلَ أَوْعَثَ وَعَثَاءٌ "اهـ" (٤)

وقال الشيخ عبدالمحسن العباد - حفظه الله - قوله: [(اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر)] . وعثاء السفر: شدته وتعبه، وما يحصل فيه من المصائب والبلاء والمشقة والعناء "اهـ" (٥)

قوله: ((كآبة المنظر)) أو ((سوء المنظر)):

استعاذ النبي - صلى الله عليه وسلم - من كآبة المنظر، وهو الهم والحزن الناتجان عن حصول مصيبة، أو فوات مصلحة، أو قد يكون المعنى بسوء المنظر الناتج عن التعب والإرهاق الذي يعتري المسافرين في سفره، لأن الشيطان يفرح إذا رأى الإنسان كئيلاً مرهقاً متعباً، ويغضب إذا كان منبسطاً فرحاً، ولهذا جاء في الحديث أن الله تعالى يحب العطاس ويكره التثاؤب (٦)، وذلك لأن التثاؤب يفرح الشيطان لما يعتري الإنسان من تغير ملامح الوجه وسوء المنظر، ولذلك أمر العبد برد التثاؤب أو تغطية الفم إغاضة للشيطان، فالشاهد الاستعاذة من كآبة المنظر على كل حال.

(١) انظر المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم - (١١ / ١٠)

(٢) انظر مشارق الأنوار على صحاح الآثار - (٢ / ٢٩٠) للبحري.

(٣) انظر شرح النووي على مسلم (٥ / ٥)

(٤) تحفة الأحوذى - (٨ / ٣٣٤)

(٥) شرح سنن أبي داود - (١٤ / ٧١)

(٦) رواه البخاري في صحيحه - برقم (٦٢٢٣)

قال القرطبي - رحمه الله - : ((كآبة المنظر)) ؛ أي : حزن المرأى ، وما يسوء منه" اهـ^(١)

وقال النووي - رحمه الله - (الْكَابَةُ) يَفْتَحُ الْكَافَ وَيَالَمَدَّ وَهِيَ تَغْيِيرُ النَّفْسِ مِنْ حُزْنٍ وَنَحْوِهِ ، وَ (الْمُتَقَلَّبُ) يَفْتَحُ اللَّامَ : الْمَرْجِعُ" اهـ^(٢) .

وقال الحميدي : "تغير النفس والانكسار من الحزن والهم يقال رجل كئيب أي حزين" اهـ^(٣) .

قوله : ((وسوء المتقلب)) أو ((كآبة المتقلب)) :

استعاذ النبي - صلى الله عليه وسلم - من سوء المتقلب ، أي من سوء المرجع من سفره ، وهو قريب من معنى "كآبة المنظر" وقد يكون هذا أعم إذ أنه قد يصاب في نفسه أو في أهله أو في كليهما، فيكون هذا أعم من هذه الحيثية .
قال النووي - رحمه الله و (الْمُتَقَلَّبُ) يَفْتَحُ اللَّامَ : الْمَرْجِعُ" اهـ^(٤) .

وقال المبارك فوري - رحمه الله - (وَكَابَةُ الْمُتَقَلَّبِ) : "الْكَابَةُ يَفْتَحُ الْكَافَ وَيَالَمَدَّ وَهِيَ تَغْيِيرُ النَّفْسِ بِالْإِنْكَسَارِ مِنْ شِدَّةِ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، يُقَالُ: كَتَبَ كَابَةً وَاكْتَابَ فَهُوَ مُكْتَنِبٌ وَكُتِبَ الْمَعْنَى أَنَّهُ يَرْجِعُ مِنْ سَفَرِهِ بِأَمْرٍ يُحْزِنُهُ إِمَّا إِصَابَةً فِي سَفَرِهِ وَإِمَّا قَدَمَ عَلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يَعُودَ غَيْرَ مَقْضِي الْحَاجَةِ أَوْ أَصَابَتْ مَالَهُ آفَةٌ أَوْ يَقْدَمَ عَلَى أَهْلِهِ فَيَجِدُهُمْ مَرْضَى أَوْ قَدْ فَقَدَ بَعْضَهُمْ كَذَا فِي النَّهَايَةِ . وَالْمُتَقَلَّبُ يَفْتَحُ اللَّامَ الْمَرْجِعُ" اهـ^(٥) .

وقال الشيخ عبد المحسن العباد - حفظه الله - قوله : [(وكآبة المتقلب)] . بأن ينقلب من سفره وقد حصل له بلاء أو مصائب أو أضرار أو كونه أراد المهمة التي سافر من أجلها فلم يحصل على ما يريد فرجع بدون طائل . وكذلك أيضاً فيما يتعلق بأهله أن يرجع إليهم وقد حصل لهم بلاء أو أضرار ، أو فقد أحداً منهم ، فيكون كئيباً حزيناً مكتئباً للأمر الذي حصل له ، أو الأمر الذي حصل لأهله ، فإذا رجع يرجع وقد أصيب بشيء من هذه المصائب ، أو لما فاتته من الخير الذي أراده" اهـ^(٦)

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم - (١١ / ١٠)

(٢) شرح النووي على مسلم - (٥ / ٥)

(٣) تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم - (١ / ٢٣٩) للأزدي الحميدي

(٤) شرح النووي على مسلم - مشكول - (٥ / ٥)

(٥) تحفة الأحوذى - (٨ / ٣٣٤)

(٦) شرح سنن أبي داود - عبد المحسن العباد - (١٤ / ٧١)

وقال العظيم آبادي - رحمه الله - : (الْمُنْقَلَبُ) : "مَصْدَرٌ مِيمي . قَالَ الْخَطَّابِيُّ : أَيُّ يَنْقَلِبُ مِنْ سَفَرِهِ إِلَى أَهْلِهِ كُنَيْبًا حَزِينًا غَيْرَ مَقْضِي الْحَاجَةِ أَوْ مَنْكُوبًا ذَهَبَ مَالُهُ أَوْ أَصَابَتْهُ آفَةٌ فِي سَفَرِهِ ، أَوْ يَقْدَمُ عَلَى أَهْلِهِ فَيَجِدُهُمْ مَرَضَى أَوْ يَفْقِدُ بَعْضَهُمْ أَوْ مَا أَشَبَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَكْرُوهِ" اهـ^(١)

قوله: (فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ)

قال الشيخ العباد - حفظه الله - قوله: [(وسوء المنظر في الأهل والمال)] . يعني: كونه تكون مصائب في الأهل ومصائب في المال، فيكون المنظر سيئاً بأن يحصل للمال احتراق أو أي مصيبة تصيبه وتحصل له، بحيث يرجع صاحبه فيراه على وجه يسوءه، وكذلك أيضاً بالنسبة لأهله كونه يرى فيهم شيئاً يسوءه سواء في أخلاقهم أو خلقهم^(٢)

قال المباركفوري :- رحمه الله - : "أَيُّ مِنْ أَنْ يَطْمَعَ ظَالِمٌ أَوْ فَاجِرٌ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ قَالَهُ الْقَارِي ، وَقَالَ فِي الْمَجْمَعِ : سُوءُ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ أَنْ يُصِيبَهُمَا آفَةٌ بِسُوءِ النَّظَرِ إِلَيْهِ" اهـ^(٣) .

فهاتان جملتان جامعتان لكل بلاء وهما (كآبة المنظر وسوء المنقلب) فاستعاذ النبي - صلى الله عليه وسلم - منهما .

قوله: ((وَالْحَوْرُ بَعْدَ الْكُورِ..))

استعاذ النبي - صلى الله عليه وسلم - من النقصان بعد الزيادة ومن الضلالة بعد الهدى ، ومن الجهل بعد العلم ، ومن الانحراف بعد الاستقامة ، ومن التذبذب بعد الثبات ، وهو في مأمن من ذلك كله ، بعصمة الله له ، واصطفائه لحمل الرسالة ، ولكنه يعلم أمته هذا الدعاء وأمثاله ، في أسفارهم وحضرهم ، وأكد ذلك في السفر لأن المسافرين قد يتعرض لشيء يمس في دينه أو دنياه ، كونه يخالط أناساً لا يعرفهم ولا يعرف عقائدهم ، وربما تأثر العبد بهم ، بل ربما سافر إلى أرض سوء يكثر فيها المنحرفون ، بل ربما سافر إلى بلاد الكفر فيخالط الكفار كما هو واقع كثير من المسلمين في هذا الزمان ، وقد علم من الشرع تحريم الإقامة في بلاد الكفار إلا لضرورة^(٤) ، فتراهم يسافرون إلى دول أوربا وغيرها من دول الكفر وربما رجع بعضهم بغير دين والعياذ بالله فناسب أن يدعو المسافرين بهذا الدعاء العظيم ، وهاتان الكلمتان جامعتان تحمل معاني كثيرة ، وقد أوتي نبينا - صلى الله عليه وسلم - جوامع الكلم .

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود (مراجع) - (٧ / ٢٥٩)

(٢) شرح سنن أبي داود - عبد المحسن العباد - (١٤ / ٧١)

(٣) تحفة الأحوذى - (٨ / ٣٣٥)

(٤) ذكر العلامة ابن عثيمين - رحمه الله - شروطاً ثلاثة للسفر إلى بلاد الكفار وهي: - أن يكون عند المسافرين دين يتقي به الشهوات، - وأن يكون عنده علم يتقي به الشبهات، - وأن يكون السفر لضرورة لا يستطيع قضاءها في بلاد المسلمين "انظر شرح رياض الصالحين.

قال التبريزي - رحمه الله - : (والحرور بعد الكور) بفتح فسكون فيهما والحاء مهملة ، أي من الانتقاص بعد الزيادة والاستكمال يعني من نقصان الحال والمال بعد زيادتهما وتامهما ، أي من أن ينقلب حالنا من السراء إلى الضراء ومن الصحة إلى المرض ، وقيل : من فساد الأمور بعد صلاحها ، وقيل : من التفرق بعد الاجتماع ، وأصل الحرور نقض العمامة بعد لفها ، وأصل الكور من تكوير العمامة وهو لفها وجمعها ، وقيل الحرور الرجوع عن الجماعة بعد أن كان فيهم . وروى مسلم في صحيحه : ((من الحرور بعد الكون)) ^(١) بالنون مصدر كان يكون كوناً من كان التامة دون الناقصة يعني من النقصان والتغير بعد الثبات والاستقرار . وقيل : معناه الرجوع عن الحالة المستحسنة بعد أن كان عليها وفي ، كلامهم حار بعد ما كان يريد كان على حالة جميلة فحار عن ذلك أي : رجع . قال الله تعالى : " إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَى " [الانشقاق : ١٤ ، ١٥] أي : لن يرجع . قال النووي في شرح مسلم : هكذا هو في معظم النسخ من صحيح مسلم ((بعد الكون)) بالنون بل لا يكاد يوجد في بلادنا إلا بالنون " اهـ ^(٢)

وقال السيوطي - رحمه الله - : (وَالْحَوْرُ بَعْدَ الْكُورِ) : رُوِيَ بِالنُّونِ وَبِالرَّاءِ قَالَ التِّرْمِذِيُّ وَكَلاَهُمَا لَهُ وَجْهٌ قَالَ وَيُقَالُ الرَّجُوعُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ وَمِنَ الطَّاعَةِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَمَعْنَاهُ الرَّجُوعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الشَّرِّ هَذَا كَلَامُ التِّرْمِذِيِّ وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَعْنَاهُ بِالرَّاءِ وَالنُّونِ جَمِيعًا الرَّجُوعُ مِنَ الْإِسْتِقَامَةِ وَالزِّيَادَةِ إِلَى النُّقْصَانِ قَالُوا وَرَوَايَةُ الرَّاءِ مَأْخُودَةٌ مِنْ تَكْوِيرِ الْعِمَامَةِ وَهِيَ لَفُّهَا وَجَمْعُهَا وَرَوَايَةُ النُّونِ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْكُورِ مَصْدَرٌ كَانَ يَكُونُ كَوْنًا إِذَا وُجِدَ وَاسْتَقَرَّ . الْكُورُ لَفُّ الْعِمَامَةِ وَالْحَوْرُ نَقْضُهَا وَالْمُرَادُ الْإِسْتِعَادَةُ مِنَ النُّقْصَانِ بَعْدَ الزِّيَادَةِ أَوْ مِنَ الشَّتَاتِ بَعْدَ الْإِنْتِظَامِ أَيْ مِنْ فَسَادِ الْأُمُورِ بَعْدَ صَلَاحِهَا وَقِيلَ مِنَ الرَّجُوعِ عَنِ الْجَمَاعَةِ بَعْدَ الْكُورِ فِيهِمْ وَرَوَى بَعْدَ الْكُورِ بَنُونَ أَيْ الرَّجُوعُ مِنَ الْحَالَةِ الْمُسْتَحْسَنَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَيْهَا قِيلَ هُوَ مَصْدَرٌ كَانَ تَامَةً أَيْ مِنَ التَّغْيِيرِ بَعْدَ الثَّبَاتِ " اهـ ^(٣)

وقال الدهلوي السيوطي - رحمه الله - : " قوله : (والحرور بعد الكور) أي من النقصان بعد الزيادة قيل : من فساد أمورنا بعد صلاحها ، وقيل : من الرجوع عن الجماعة بعد أن كنا منهم ، وأصله من نقض العمامة بعد لفها ، كذا قال بن الأثير في النهاية ، قال الطيبي : وروى بعد الكون بنون أي الرجوع من الحالة المستحسنة بعد أن كان عليها وفي شرح جامع الأصول الكون من كان التامة أي من التغير بعد الثبات انتهى " اهـ ^(٤)

(١) انظر صحيح مسلم - (٢٣٩٣)

(٢) انظر مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح - (٨ / ٣٦٦)

(٣) حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي - (١٦٣ / ١٦٤)

(٤) شرح سنن ابن ماجه - (١ / ٢٧٧)

قال البغوي - رحمه الله -: وقوله : " والحر بعد الكور " أي : من التفرق بعد الاجتماع .. "اهـ" ^(١)

قوله ((وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ..))

استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من دعوة المظلوم لأنها مستجابة، ومن لازم ذلك الاستعاذة من الظلم وأسبابه ، ومن أسباب دعوة المظلوم، مثل الإساءة إلى اليه وأخذ حقه أو الطعن في عرضه أو نحو ذلك، فيجتنب ذلك كله، فبعض الناس يفرح لو ظفر بإنسان يظلمه ويغفل عن سوء العاقبة، ولهذا استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من دعوة المظلوم لسوء عاقبتها، فقد يدعو المظلوم على من ظلمه بدعوة تهلكه أو توبقه في دينه ودنياه، وخص النبي صلى الله عليه وسلم الاستعاذة من دعوة المظلوم في السفر ؛ لأن السفر مظنة حصول المصائب ، فقد يستجيب الله للمظلوم دعوته فتحقيق بالمسافر في سفره، والمصيبة في حال السفر أشد منها في حالة الحضر ، وإلا فدعوة المظلوم مستجابة سفرًا وحضرًا، ومن الظلم أذية المسافرين بتعاطي الدخان أو بسماع الأغاني ، أو بالجدال بالباطل ، ونحو ذلك، فاحذر أيها المسافر من أذية إخوانك المسافرين لا تصيبك سهامهم، فقد أوصى الله بالصاحب المسافر خيرًا كما جاء عن بعض المفسرين في معنى قوله تعالى : {والصاحب بالجنب [النساء]}

فقد روى البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "وَأَتَقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ" وروى أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ - صلى الله عليه وسلم - قَالَ « ثَلَاثٌ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ دَعْوَةُ الْوَالِدِ وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ » ^(٢)

وروى الطبراني عن خزيمة بن ثابت - رضي الله عنه - قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام يقول الله : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين" ^(٣)

وروى أحمد والطيالسي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرا ففجوره على نفسه" ^(٤) وروى أحمد عن أبي عبد الله الأسدي قال سمعت أنس بن مالك - رضي الله عنه - يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعوة المظلوم وإن كان كافرا ليس دونها حجاب" ^(٥)

(١) انظر شرح السنة - للإمام البغوي متنا وشرحا - (١٣٧ / ٥)

(٢) صحيح : صحيحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب - (٢ / ١٣١) (١٦٤٨) وهو أحمد والترمذي .

(٣) حسن : حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢ / ٤٤٤) (٨٧٠)

(٤) حسن : حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب - (٢ / ٢٦٥) (٢٢٢٩)

(٥) حسن : حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب - (٢ / ٢٦٥) (٢٢٣١)

قال النووي - رحمه الله - :قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ) : "أَيُّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ دُعَاءُ الْمَظْلُومِ . وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ . فَفِيهِ التَّحْذِيرُ مِنَ الظُّلْمِ وَمَنْ التَّعَرُّضُ لِأَسْبَابِهِ" اهـ^(١) .

وقال المباركفوري - رحمه الله - : (وَمِنْ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ) : "أَيُّ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ دُعَاءُ الْمَظْلُومِ وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ ، فَفِيهِ التَّحْذِيرُ مِنَ الظُّلْمِ وَمَنْ التَّعَرُّضُ لِأَسْبَابِهِ . قَالَ الطَّبِيبِيُّ فَإِنْ قُلْتَ : دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يُحْتَزُّ عَنْهَا سَوَاءٌ كَانَتْ فِي الْحَضَرِ أَوْ السَّفَرِ ، قُلْتَ : كَذَلِكَ الْحَوْرُ بَعْدَ الْكُورِ ، لَكِنَّ السَّفَرَ مَظْنَةُ الْبَلَايَا وَالْمَصَائِبِ وَالْمَشَقَّةِ فِيهِ أَكْثَرُ فَخَصَّتْ بِهِ أَنْتَهَى . وَيُرِيدُ بِهِ أَنَّهُ حِينَئِذٍ مَظْنَةُ لِلنُّقْصَانِ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَبَاعِثٌ عَلَى التَّعَدِّيِّ فِي حَقِّ الرُّفْقَةِ وَغَيْرِهِمْ لَا سِيَّمَا فِي مَضِيقِ الْمَاءِ كَمَا هُوَ مُشَاهِدٌ فِي سَفَرِ الْحَجِّ فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِ" اهـ^(٢) .

قوله: « آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ »

وفي رواية عند الترمذي وغيره قال:وَكَانَ يَقُولُ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ « آيِبُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ »^(٣) .

ختم النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا الدعاء العظيم عند رجوعه من سفره بهذه الكلمات المباركات ، لتدل على صلة العبد بربه وحاجته إليه في ذهابه وإيابه، وحمده لربه وشكره لنعمته، واعترافه بفضلله ، إذ أنعم عليه بهذه النعم، وأعاناه على سفره، وقضى حاجته، وحفظه من كل سوء ومكروه، ويسر رجوعه إلى أهله بفضلله وكرمه، وفيه تجديد عهده بربه ، ومواصلته لعبادته ، وإقراره بذنوبه ، والعزم على توبته منها، فقال: (آيِبُونَ) أي قائلون راجعون بفضل الله بلا سوء ولا مكروه، وعلقه بمشيئة الله كما في الرواية الأخرى، من باب قوله تعالى: { وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا } [الكهف : ٢٣ ، ٢٤] ؛ لأنه قد يصل إلى بلده أو ينقطع به السير أثناء رجوعه ، (تائبون) أي تاركون للذنوب جميعها، مما حصل منا من مخالفات وتقصير أثناء سفرنا، مستغفرون منها عازمون على عدم العودة إليها، نادمون على فعلها، (عابدون) لربنا ، مستمررون على عبادته في سفرنا وحضرنا وجميع أحوالنا ، منفادون لأمره، مجتنبون لنهييه، متذللون عنده ، مفتقرون إليه، مستكينون له حتى يتوفانا، (لربنا حامدون) على ما أولانا من النعم ، وسخرها لنا، وحفظنا في سفرنا، وقضى حوائجنا، معترفون بذلك ، مقرون بأنها منه ، شاكرون له .

فما أحسنها من كلمات ! وما أجمله من دعاء ! ولكن أكثر الناس لا يفقهون ، نسأل الله العظيم أن يفقهنا في ديننا .

(١) انظر شرح النووي على مسلم - مشكول - (٦ / ٥)

(٢) انظر تحفة الأحوذى - (٨ / ٣٣٥)

(٣) انظر سنن الترمذى - مكنز - (١٢ / ٣٨٩) وأصله في صحيح البخاري - (٤ / ٩٣) (٣٠٨٤)

قال الباجي: (فَصْلٌ) وَقَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : آيِبُونَ تَائِبُونَ يُرِيدُ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ آيِبُونَ مِنْ سَفَرِهِمْ، تَائِبُونَ لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ كُلِّ مَا نَهَى عَنْهُ، عَابِدُونَ لَهُ دُونَ مَنْ سِوَاهُ، سَاجِدُونَ لَهُ ،حَامِدُونَ عَلَى مَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَالْحِفْظِ فِي السَّفَرِ وَالْعَوْنِ عَلَيْهِ وَالتَّوْفِيقِ لِلصَّوَابِ فِي جَمِيعِهِ "اهـ^(١) .

وقال المباركفوري - رحمه الله - :"(آيِبُونَ) بالمد..أي نحن راجعون من السفر بالسلامة إلى الوطن (تائبون) أي من المعصية إلى الطاعة (عابدون لربنا حامدون) ، قال الطيبي : لربنا يجوز أن يتعلق بقوله عابدون لأن عمل اسم الفاعل ضعيف فيقوى به أو بحامدون ليفيد التخصيص ، أي نحمد ربنا لا نحمد غيره وهذا أولى لأنه كالخاتمة للدعاء - انتهى "^(٢)

تم الكتاب بحمد الله ومنتته يوم الخميس ١٣ /محرم/ ١٤٤٠ هـ

مسجد التوحيد/رداع /اليمن.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون

وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين.

(١) المنتقى - شرح الموطأ - (٦ / ٣)

(٢) انظر مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - (٨ / ١٦٩)

الفهارس

٢	المقدمة
٣	سبب تأليف هذه الرسالة:
	الفصل الأول:
٣	مسائل تتعلق بالدعاء
٣	حاجة الإنسان إلى الدعاء في الحضر عموماً و في السفر على وجه الخصوص:
٥	الحكمة من أن السفر مظنة إجابة الدعاء:
٦	حاجة الإنسان إلى الذكر عموماً:
٧	التمعن والتدبر للدعاء والذكر:
٨	تنبيهات قبل الدعاء
٩	أولاً آداب الدعاء:
٩	ثانياً أسباب إجابة الدعاء:
١٠	ثالثاً موانع الإجابة:
١٠	رابعاً: أوقات الإجابة:
١٠	إنذار للمسافر
١٢	تذكير المسافرين بنعمة المواصلات
	الفصل الثاني:
١٥	حديث دعاء السفر
١٦	المعنى العام لحديث دعاء السفر:
١٧	الشرح التفصيلي لحديث دعاء السفر:
١٧	قوله - رضي الله عنه -: ((كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ...))
١٧	قوله ((كَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَ الَّذِي...))
١٨	وقوله: ((سُبْحَانَ الَّذِي...))
١٨	قوله: ((الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ...))
٢٠	قوله: ((وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ...))
٢٠	مناسبة ذكر قوله: ((وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ)) بعد ذكر تسخير هذه النعم:
٢١	قوله: ((اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى...)):
٢٢	الفرق بين البر والتقوى:
٢٢	قوله: "وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى...")
٢٢	قوله: "اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا"
٢٣	معنى قوله: ((وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ...))
٢٤	قوله ((اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ...))
٢٥	قوله: ((وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ...))
	قوله: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْظَرِ وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ «
٢٦	معنى الاستعاذة:

- الفهرس